المذهب الهندوسي

عرض لتاريخه وتحليل لفروعه ومعتقداته

بقلم الأستاذ محمد قطب الدين

عضو بعثة حكومة النظام حيدر آباد بالهند

وليسانسيه في العلوم الفلسفية من الجامعة المصرية

أثارت هذه الوثبة الجريئة التي وثبها «فاندى» حين بدأ الصوم الأبدي، ما تثيره الدوبعة من عنف شديد، وأتاحت للعالم كله أن يتحدث من جديد عن الديانة الهندوسية، وعن حالة المنبوذين في الهند، ولقد جمع هذا المقال الذي كتبه الأستاذ «قطب الدين» كل ما في هذه الديانة الهندوسية من جوانب. ومن حقنا أن نقول: إنه مقال جامع. لأن كاتبه هندي مثقف، أتم دراسته العالية في الهند، واجتاز مرحلة الليسانس في الجامعة المصرية بتفوق، ليعود إلى وطنه أستاذاً للفلسفة في جامعة «عثمانيا» الشهيرة بحيدر آباد.

المحرر

تاريخ المذهب الهندوسي:

كانت الهند - ولا تزال - مهبط الحكمة من أمد بعيد. وفي عقيدة الهندوسيين - وهم سكانها الأصليون - أن ديانتهم الهندوسية هي أقدم الديانات، وهم لذلك يطلقون عليها اسم «الديانة الأزلية». ويدعون أنهم أساتذة العالم الذين نشروا تعليم ما وراء الطبيعة المتعلقة بالإله والنفس البشرية والجسم. وأن آثارهم ونقوشهم القديمة، تدل على انتشار أفكارهم وتعاليمهم في العالم. وخاصة في مصر واليونان.

وقد قيل إن «فيثاغورس» هو أول يوناني تعلم مذهب «تناسخ الأرواح»، وقد زاد «أبيلوس» هذا القول توضيحاً حين قال: إن «فيثاغورس» ذهب إلى الهند حيث تلقى المذهب الهندوسي فيها على أيدي البراهمة.

والواقع أن أول ظهور لمذهب (Pre-existence) ومذهب الروح الفردية الأزلية، كان بين الآريين في الهند، وكذلك مذهب المنفيسيين (نسبة إلى منفيس) كما قال كارل هيكل: «لم يكن

أول بزوغ له في سماء مصر القديمة ؛ وإنما أخذ من الديانة الهندوسية أخذاً . كما أن فكرة الروح وفرديتها عند المصريين أخذت هي الأخرى من تعاليم المصريين المتصوفين ، الذين استقوها بدورهم من الهند ؛ وهذا كله لقي طريقه إلى الاسكندرية ممهداً سهلا فاستقر فيها . بدليل أن المراجع البوذية توضح لنا نشاط التبشير البوذي في الاسكندرية وفي آسيا الصغرى .

والآن ، وبعد أن سردنا تاريخاً موجزاً للمذهب الهندوسي ، نرى ـ توضيحاً للبحث ـ أن نتكلم كلمة عامة عن سكان الهند بأجمعها ، والديانات التي يدين بها هؤلاء السكان . فأما عدد سكان الهند : فانه يقارب في الإحصاء الأخير ثلاثمائة وخمسين مليوناً من الأنفس ، مقسمين إلى ثلاث ديانات كبرى .

١ — المسلمون ؛ ويبلغ تعدادهم سبعين مليون نسمة .
٢ — البوذيون ويبلغ تعدادهم تسعة ملايين .
٣ — الهندوسيون ويبلغ تعدادهم مائة وستين مليوناً .

وإذا نحن أردنا أن نعرف الديانة الهندوسية تعريفاً يلائم مايعرفه به أشياعها وأتباعها لكان علينا أن نقول بأنها ـ في أصلها ـ مبنية على التأمل الفلسفي ، وعلى التعاليم الأخلاقية الموجودة في مختلف الكتب المقدسة (ويداس) ؛ التي أدخلها رجال الدين الهندوسي في أزمنة متفرقة :

التعاليم الهندوسية :

« إن العالم لانهائي في المكان ، وأزلي في الزمان ؛ وليس له أول ولا آخر » .

وإننا لنرى من الظواهر الكثيرة ما يدل على قوة الروح ، كما أننا نرى أيضاً الظواهر التي تبرهن لنا كل يوم على قوة الروح اللانهائية والروح ... ، في مملكة الأرواح المتناهية ، فنجد أن الروح اللانهائية هي الموجودة لنفسها ... ، وعدمها أزلية ثابتة ، وأن مرور الزمن لايؤثر بأي حال في تلك الأزلية ؛ وأن مطلب هذه الأزلية لايمكن أن تكون في متناولنا على الإطلاق ؛ لأنه ليس لها ماض ولا مستقبل .

والروح البشرية غيرفانية ، ولكن الجسم خاضع لقانون النمو والفناء ، لأن كل ما ينمو لابد له أن يتلاشى ، ولكن الروح المتقمصة تدخل في عداد الحياة الأزلية اللانهائية ؛ فليس لها أول وليس لها آخر ، والروح البشرية صادرة عن الوجود الأزلي . كما أنها ليست سابقة على الإله نفسه ؛ فنجد الظواهر الكثيرة ـ التي تعترضها وستعترضها في انتقالها من شخصية إلى أخرى ـ خاضعة للقانون الأعظم التطوري ، إلى أن يصل بها إلى درجة الكمال الذي لايتبعه تغيير .

ورب معترض يقول : إذا كان هذا كذلك فلماذا لانتذكر حياتنا الماضية ؛ فالهندوسيون يردون بقولهم : إن الوجدان ، أو الضمير (Consciousness) ماهو إلا اسم الشاعر المحيط

العقل ، ولكن في جوفه تختزن تجاربنا ، الفرح منها والحزن ، وإن رغبة النفس الانسانية هي أن تكتشف شيئاً أساسياً ، لأن العقل والجسم خاضعان للتغيير الدائم ، بل إن كل الظواهر الطبيعية مقيدة ، ولكن الأمنية العليا لوجداناتنا ؛ هي أن تكتشف الشيء الثابت الذي يصل بها إلى حال من الكمال الدائم ، وهذا هو أمل النفس البشرية على أسلوب لانهائي .

وكلما كل خالقنا ورقينا العقل ، كلما صار أملنا قوياً بمقتضى الأزلية الثابتة .

ثم الموت . . . . ما هو - في عرفهم - إلا حالة من التغيير ، فإننا نبقى في نفس العالم ، ونخضع لنفس القوانين ، كما كنا قبل ذلك .

واجب الوجود :

وهم يعتقدون في إله واحد ، وهو « أبو الكل » ، الموجود في كل مكان ، القادر المطلق ، وهو القائد والحافظ لعبيده ، المحوطين بحبه الأبدي ، يعتقدون أن شخصه - الإله - منصب فيهم ، أي أن الله فيهم وهم فيه ، ويعتقدون أن كل دين يحمل ذرات من الحقائق التي غرستها فيهم قوانين الديانة الهندوسية ، لأن الحقيقة في هذا العالم توجد بالإيجاب لا بالسلب :

ومن شعارهم : « يجب أن نحب الإله للإله نفسه ، ونؤدي واجبنا نحوه للواجب نفسه ، لا لأمل الحصول على جزاء » ؛ فيمكن هنا أن نشبه كل مخلوق بكرة من زجاج . . فهناك نور وهاج قوي منبعث إلى قلب كل من المخلوق والكرة ، صادر في الرب (الإله) ، وما دام الزجاج مختلف الألوان متباين الكثافة ، فإن الشعاع يتخذ له اتجاهات مختلفة ، لكي يصل إلى الصميم منه ؛ فالتساوي والجمال متكافيء في كل من المخلوق والكرة ، والتباين الخارجي ما هو إلا نقص عرضي ؛ فكلما زاد ارتفاعنا على درجات الوجود ، كلما انكشف لنا ما خفي عنا من الحقائق الإلهية .

طرق العبادة وصلتها بالأصنام :

أما العبادة عند الهندوسيين فذات وجهين ، يتخذ الوجه الأول له أسلوباً رسمياً ظاهرياً ، ويطلقون على الوجه الثاني اسم « العبادة العليا » ؛ فالرسمي ضروري على الإطلاق ، لأنه يساعد النفس على الصعود ، والانسان يخطيء خطأ كبيراً عند ما يظن أنه يقفز طفرة واحدة إلى أعلى مكانة .

وكل الكتب الدينية ، وكل رجال الدين ، يعترفون بوجود الاله والنفس ، ولكن : هل يمكننا رؤيتهما ؟ فالدين ماهو إلاتقدم بطيء ممتد ، وكلنا هنا أطفال تتعلم المذاهب والعقائد ، ولكننا لا نتحقق من شيء في حياتنا ؛ ولأجل أن نصل إلى حال يمكننا أن نتحقق منها ، يجب

أن نمر داخل المحسوس ، فإن الأطفال يتعلمون المحسوسات أولا ، ثم يتدرجون منها حتى يصلوا إلى المجردات : فإذا قلت لطفل إن اثنين فى خمسة تساوى عشرة ، فقلما يفهم ما تريد ؛ ولكنك إذا أحضرت عشرة أشياء ، وشرحت له كيف أن العشرة تساوى ٢ × ٥ ، فإنه يفهم ما تريد على الفور ؛ ولذا فإنه يجب علينا أن نتخذ طريق الحس : لنصل منه إلى الطريق المجرد .. وليس طريق الحس إلا قاعدة لعبادة الأصنام ، فإن كل ألفاظنا ليست إلا رموز لأفكار سابقة ؛ وكما أن الألفاظ تصور لنا الأفكار المجردة فى صورها المحسوسة ، فإن الصور المحسوسة — على العكس — تصور لنا الفكرة المجردة فى الباطن . ولذا فإن العبادة الرسمية التى أشرنا إليها ترشدنا عن الأصنام المختلفة وعبادتها .

وإنا لنجد فى الهند عبادات مختلفة ، فهناك أناس يعبدون صور القديسين ؛ وآخرون يعبدون هياكل وأصناماً ؛ وغيرهم يعبدون البشر الذين هم دونهم فى المرتبة والجاه ؛ وعدد هؤلاء يتزايد فى سرعة فائقة ؛ ويدعون بعباد أرواح الأموات ؛ وهناك أناس آخرون يعبدون مخلوقات خاصة أرفع شأناً ؛ كالملائكة والآلهة . . .

والكتب المقدسة للهندوس لا تنتقد طريقاً من طرق العبادة المختلفة ؛ فكل ما ذكرنا من هؤلاء العباد يعبدون — فى الحقيقة — شيئاً هو أقرب إلى الخالق منه إلى الأصنام .

وهذا التعبد لا يمكن أن يقودهم إلى الخلاص والتحرر ، بل يمنحهم شيئاً خاصاً من أجله هم يعبدونها (الأصنام) . فالرجل الساذج ، ولو أنه لا يمكنه أن يسمو بتفكيره بهذه العبادة ، إلا أنه يحصل على شيء من الثقة والطمأنينة بواسطتها ، ولكنه بعد قطعه مشواراً طويلاً فى التجارب ، يكون على استعداد للتحرر ، وبذلك يترك هذه العبادة من تلقاء نفسه .

البوذية :

والبوذية هى قسم من أقسام المذهب الهندوسى المترامى الأطراف ، وقد أوجدها الرجل العظيم (جوتما بوذا) قبل خمسة آلاف سنة ، وقد أوجد نواميسها بعد ما درس الالهيات والروحانيات دراسة عميقة ، وخرج منها بهذه الفكرة السامية ، وإذا نحن درسنا المذهب الهندوسى ، وحللناه تحليلا دقيقاً ، وجدنا أنه منقسم إلى أربع طوائف أو طبقات Caste System سنفسرها فيما بعد ، وقد أنكر عليهم الحكيم «بوذا» هذا التقسيم الذى يعتقد به بعضهم ، وهو : أنهم خلقوا من طينة أرقى من تلك التى خلق منها الآخرون ، وكان يحارب رجال الدين الذين اتخذوا منه تجارة يجنون من ورائها أطيب الثمرات ، ولذلك فإنا نجد أن عبادة الله فى المذهب البوذى خالية من أى غرض ، فإنهم لا يتخذون من عبادته تعالى وسيلة للدخول فى الجنة أو نيل مقصد آخر ، وإنما هى عبادة خالصة رائعة الخلوص .

ولقد حدث أن خمسة من البراهمة المختلفين فى الرأى ، وفدوا عليه لكى يحكم بينهم ويرجح من آرائهم مايلابس الصواب ؛ فأذن لكل منهم أن يدلى بآرائه وبراهينه ، حتى يتعرف إلى مابينهم من خلف فى الرأى حول وجود الله ، حتى إذا ماانتهوا ، أقبل « بوذا » عليهم يسأل كلا منهم على حدة : « هل يقول كتاب من كتبكم المنزلة إن من صفات الله الغضب ؟ وهل من صفاته بعث الضرر إلى واحد من عبيده ؟ وهل من صفاته أنه مفقود الكمال ؟ » ، فأجابوه نفياً ، لأنهم تعلموا أن الله كامل الصفات ؛ وعند ذلك قال لهم بوذا : « إذن يا أصدقائى ، لماذا أنتم لاتتصفون بالكمال وبما هو طيب ؟ إن ذلك هو الذى يصل بكم إلى معرفة الإله » .

وقد كان « بوذا » الرجل الوحيد الذى يحارب الأغراض ، وقد كان هناك كثير من علماء الهندوسيين ، الذين يقولون بتقمص روح الإله فيهم ، وإن دخول الجنة لمن يطلبها مرهون بالاعتقاد فى هؤلاء العلماء ؛ ولكن « بوذا » كان يحاربهم حرباً عنيفة شعواء حتى لفظ النفس الأخير ، وكان يقول : « عاون نفسك ، واعمل دائماً لنجاتها ، فلن يأخذ أحد بيدك » ، وكان يقول أيضاً عن نفسه : « إن بوذا اسم خالد إلى الأبد ، لانهائى كالسماء ، أنا (جوتما) الذى وصلت إلى هذا الدرج الذى ستصلون إليه أيضاً إذا جاهدتم من أجله » .

وكما أن « بوذا » كان يناضل الأغراض ، فإنه كان لا يود النعيم ، زاهداً فى النقود ، مضحياً بعرشه وبكل ما يملك ، وكان يستجدى طعامه فى طرقات الهند ، مبشراً بالخير للناس ، وللحيوانات بصدر واسع كالمحيط ؛ وكان هو الرجل الوحيد الذى استعد لتضحية حياته فى سبيل الحيوانات للحيلولة دون تضحيتها ، وقد قال يوماً لملك من الملوك : « إذا كانت التضحية بجرو تعاونك على الدخول فى الجنة ، فالأولى بك أن تضحى بإنسان لتزداد قوتك على الوصول إلى هذا النعيم ، وها أنذا بين يديك ، فضح بى » ! وقد دهش الملك من ذلك الرجل الذى يحمل فى نفسه أسمى معانى التضحية الخالية من كل شوب .

وحسب هذا الموقف أنه يدل على أن هذا الرجل كان المثل الأعلى للكمال العملى ، وقد وصفه أحد كبار علماء الدين الهندوسى بقوله : « إن الطريق تكون . . . . . . اعتقاد الناس فى الإله مباشرة ، ولكن « بوذا » على العكس ، فإن حياته تريناأن الرجل — ولو أنه لا يعتقد فى الإله ولا فى الأخلاقيات ولا ينتسب إلى مذهب ، ولا يتعبد فى كنيسة أو هيكل ، وهو مادى مع ذلك — فإنه وصل إلى أعلى قمة الكمال ، فليس من حقنا أن نحكم على بوذا إذا كان يحتمل أو لا يحتمل أنه يعتقد فى الإله ، فإن هذا لا يعنينى بقدر ما يعنينى أنه وصل إلى المكانة العلياء مثل ما وصل إليها أى رجل دينى يؤمن بالإله . . . إن الكلام لا يجدى شيئاً ، لأنه من صفات البيناوات ، ولكن الكمال يأتى عن إنجاز العمل الحل » .

وقد أنكر بوذا تقديس الكتب المقدسة عند الهندوس « ويداس » ، كما أنكر

التعاليم وقواعد العبادات التى جاءت بها هذه الكتب ؛ لأن البراهين التى جاءت فيها لم تكن كافية لإثبات وجود الله ، وكان يعتقد اعتقاداً جازماً فى الحواس الباطنية والخارجية ، وكان يعتقد فى « نروانا Nirvana » التى تقول بأنه ليس هناك بؤس وليس هناك بعث ؛ وإنما هى حال ليست فى متناول الوصف ؛ وقد قال بوذا فى ذلك : « إذا كان الرجل قادراً على أن يمحو الجهل عن نفسه وعن روحه وعن عقله ، فانه يصبح بوذا ويدخل فى نروانا (Nirvana) » .

وإن أغلب أتباعه من البوذيين يعتقدون أن كل شىء لا يمكن أن يعرف بالحواس الخمس غير موجود .

الحالة الاجتماعية عند الهنادك

إن نظام الطوائف عندهم موجود من الأزمنة الغابرة ، وقد استمر إلى اليوم عنيفاً قوياً ، ويوجد أربع طبقات من الناس : فالأولى هى طبقة رجال الدين ، والثانية طبقة المحاربين ، والثالثة طبقة التجار وأصحاب الحرف ، والرابعة هى الطبقة السفلى ، كالحمالين والنجارين والخدامين ومن إليهم ؛ وأى رجل من هذه الطبقات ، لا يمكن له أن يختلط بغير رجل من طبقته ، ولا أن يتزوج من غيرها .

والطبقة الأولى ـ أى البراهمة ـ تكون الطبقة العليا المقدسة ، التى تجمع القساوسة ، الذين كانوا يقبضون على زمام الحكم فى العصر الغابر .

وأما الطبقة الثانية ، فقد أصبحت الآن تكوّن الحكام والملوك .

وليس من شك فى أن هذا النظام ، سبب نكبة الهندوسيين الفادحة ، وهو الذى يسبب انحدارهم يوماً إثر يوم . أما الآن فقد ظهر من بينهم أناس عقلاء يعملون على هدم ذلك النظام .

وإذا اطلعنا على الكتب المقدسة عند الهندوسيين استطعنا أن نلم بأطراف الخلاف ، فانا نجد اختلافاً بسيطاً بينها وبين ديانات العالم البارزة ، وإذا أردنا أن نسجل حالة الهندوسيين الراهنة فانا لا نستطيع ـ فى وجهة الدين ـ إلا صورة شوهاء ، نطلع فيها على حظهم السيء المؤلم فى طريقة العبادات والأكل والملبس والمعيشة والمعاملة مع غير الهندوسيين ، وهذا من دون ريب نتيجة معتقداتهم الغريبة التى ورثوها عن تقليد وهمى سقيم .

وفى يقينى أن البراهمة أتعس الهندوسيين حظاً ، لأنهم يكرهون سواهم إلى حد بعيد يدفعهم إلى تصوير أنفسهم تصويراً مشوهاً ؛ ذلك أنهم يعتقدون أن النجاسة تلابسهم حين يلمسهم من لم يكن هندوسياً ، أو حين يقع ظله على طعامهم ؛ فاذا حدث من ذلك شىء كان معناه الواضح أن أجسامهم حفلت بالنجاسة ، وأن أطعمتهم قد صارت قذرة ملوثة لا قبل لهم فى ازدرادها أو القرب منها .

على أن غاندى هو أول رجل يعمل جهده من أمد بعيد ، لكى يمحو هذه الأوهام ، ويقضى على ذلك النظام .

محمد قطب الدين الهندى